-١٠-

عادل الغضبان

مثلما تبقى الذكريات بأعمارها المديدة وآثارها الراسخةعلى تراداف الأيام، وقد مرت على النيل بأحداث وشخوص وتاريخ ووقائع، كذلك تبقى ذكريات الفن والأدب حية قوية، وهى تطل على النيل كأنها تتراءى فى مرآته الصافية، ولو كان للنيل سجل ادبى حديث، كما صنع له فى القديم صاحب النجوم الزاهرة، لبرزت للعيان والأذهان صفحات والواح تتحدث بسيرة كل عربى فذ، أدى رسالته من على ضفاف النيل وشرب من مائه حتى ارتوى، وآثر القرار فى ربوعه مجاهداً وطنياً، او مفكراً حراً، يدعو للخير العام، ويشارك فى بناء النهضة الجديدة.

من هؤلاء الأفذاذ الذين أحبوا النيل ووهبوا حياتهم لبلاده وللعروبة التى تجمعها، الأستاذ عادل الغضبان، فقد جاء مصر من شهباء سيف الدولة فتى غض الاهاب، متوقد الفكر والآمال، يرمى بنظره شطر الافق حيث يجد حمى العربية، وبسطه الثقافة والمعيشة للطامح الأبى، الذى ضاق بأمله وبأهله موطن تتنازعه الملمات

وتتجاذبه التيارات التى لابست يقظته، وهبت للتحرر والقضاء على كل عابث بحقه، فى الحياة الحرة الكريمة.

ولم يطل شوق الغضبان الى الكنانة، التى احبها طفلاً وناشئاً، قبل ان يراها وقد سبقه اليها أهل وانداد، مارسوا الصحافة والوظيفة والتجارة شأن الشاميين المتمصرين، الذين نزحوا الى وادى النيل، منذ الحكم العثمانى، وبداية الاحتلال الأجنبى، فانحدر عادل من الشمال الى الجنوب، على دوى الصيحات التى كانت تنبعث فى ارجاء العرب، وكان اكثرها ينطلق من القاهرة التى شده اليها شوق وطموح.

كان بين جنبيه خافق يلهمه الخير والدأب والنبوغ، وكأنٌ قبساً من المتنبى الذى عاش فى حلب قد أضاء له الطريق وزين الغد القريب، فأقبل على مصر لهيفاً مشوقاً فى ريعان العمر يلتمس بناء علمه ومجده، لا ليلتمس سيادة ضيعة او ولاية بلدة كما شاء المتنبى الذى صده كافور وخيب تأميله ومطامعه، لكن الفتى المهاجر الذى انطلق من ملعب طفولته ودار حداثته طالبا للعلم، تفتح قلبه على حب مصر والعيش فى رحابها ورضى فى حماها بما قسم القدر، وقد أوتى غنى النفس وسعة الرجاء والذكاء، فاتخذ التدريس وسيلة للحياة والمجتمع، يهب فيها من شبابه وادبه، ومن لباقته ومعرفته للجيل الذى اتصل به بعد تخرجه من اكبر معهد للآباء اليسوعيين فى القاهرة، وتلقيه فنون الكلام وقواعد البلاغة والبحث على الثقات من المتبحرين. على ان المتمرس بالتدريس إذا كان

موهوباً دؤوباً كان تأثيره فى تلاميذه والواثقين به ابعد من تأثير المحترف المتخفف، فهو ذو رسالة يشبه العندليب حين يغرد، لأن التغريد منحة الهية لهذا الهزار، وانفعال فطرى يحسه الناس فناً رفيعاً.

وما كان لاديب مطبوع ان يقنع بما اتبع من ثقافة مرسومة ومنهاج محتوم، فعكف الغضبان على كل ما يحقق التبعات التى حملها راضياً، فقرأ كثيراً ومحص طويلاً حتى أحكم الوسيلة بينه وبين طلابه الذين بادلهم وداً بود لقنهم خفايا المعرفة وفتح قلوبهم لوعى الوجود لعلهم يأخذون احسن ما فيه، لقد علمهم ان يأخذوا بالحق والمحبة وان يعطوا بسماح ورضى، وان يعملوا لدنياهم نافعين لانفسهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه وللانسانية التى ترتقب غدهم المأمول بعد ان رأت يومهم الوثاب.

كان عادل الغضبان وهو يؤدى رسالة التدريس يعطى من علمه وأدبه بجود وسداد، ويرمى ببصره شطر الافق البعيد، غير منكر لحاله ولا متبرم بعمله، وان كان فى نفسه مرجل الامل والعزم يغلى ويفور ليجد منفذاً فى يوم قريب، فاذا ارتد الى كتبه وأوراقه نسى نفسه وانساب تفكيره وشعوره فى صورها وسطورها، وطافت بخياله اطياف ذويها، فأمسك بقلمه معلقاً او محققاً، وطاوعه القلم الملهم فعبرّ فيها عن نفسه التى اشرق الحب فيها وتغذت بالمثل العليا، وتوالت قراءة الغضبان فى الادب القديم والحديث باللغتين العربية والفرنسية قراءة متعمقة ممحصة حتى احاط علماً باللغتين والادبين وهو المطبوع على الشعر قاله صغيراً قبل ان يعرف قيود الفنية وتقاليده

الاصيلة فلما قرأ ما فى دواوين القديم والجديد وازداد تجاوبه مع الطبيعة والحياة، تابع الغضبان القريض غير متعجل للظهور ولا مستغل للصحافة التى كثيراً ما طمست الحقائق وأظهرت الزيف والباطل.

ولم يكن الشاعر الاديب عادل الغضبان بدعاً فى المدرسين، فقد استهل كثير من الادباء فى الشرق والغرب حياتهم الفكرية بالدرس والتدريس، فكانت الصفحات الاولى التى تلقتهم ليخطوا بوادرهم المتفتحة وبواكيرهم النضرة، هى صفحات اولئك الصغار اطفالاً وشباباً من الجنسين، كتبوا فيها الاعمار والاقدار وكانوا أشبه بانصاف آلهة اعطتهم القدرة الكبرى على الخلق والابداع وتكوين النفوس الانسانية واعدادها للحياة الطيبة النافعة، فلما عادوا الى الكتب يخطون عى طروسها وبين سطورها افكارهم وخواطرهم عمموا رسالتهم لتشمل الناس جميعاً، وما رضيت نفوسهم الكبيرة بنطاق محدد او مراد قريب.

وهكذا صنع الغضبان بعد سنين من زهوة عمره ودأب ثقافته وتجاربه فى التربية والتعليم، كان فى خلالها يعد نفسه لرسالة الاديب الكبير فانطلق من أفق المدرسة الى جو الصحافة مسرحاً قلمه فى تصوير الاحداث الدولية والسياسية، وفى ترجمة الشؤون القضائية، موظفاً فى المحاكم الاجنبية حتى زهد فى هذه الكلفة وضاق بأمورها فانصرف الى الصحافة الفكرية التى كانت بمصر والبلاد العربية توقظ الوعى القومى، وتعمل على بعث الامجاد ودعوة الشعوب للتحرر والأخذ بأسباب الرقى والحضارة لتحقيق حياة احسن ومجتمع أفضل.

ولقد فهم عادل الغضبان رسالة الصحافة على النحو الذى فهمها عليه الافذاذ والمصلحون الذين كانت اقلامهم وصحفهم مدارس للجمهور. اما الصحافة المصرية فى ذلك الحين فكانت بين فئة مع الحكم الغاشم تساير وتداور، وبين فئة من اقطاب المفكرين والاحرار يثيرون القضايا الوطنية ويجبهون كل كيد وعدوان، فكان جهادهم مبعث وعى جديد ويقظة تحررية تجاوب صداها فى مصر والبلاد العربية حتى اقبل على الصحافة وعزز رسالتها فريق من كبار الادباء المصريين فى طليعتهم العقاد والمازنى والبشرى وهيكل وجمعة ومظهر وطه حسين وغيرهم ممن رفعوا قدر الصحافة الى مصاف الكتابة وادخلوا عليها رياحين الفن والتجديد فجمعت بين ثقافة الفكر والنقد، وبين معالجة الشؤون السياسية والاجتماعية، ولا يزال الحنين الى الصحافة يعاود من بقى حياً من هؤلاء الاعلام ويخفق بين جوانحه. واننا ما نزال نحس نفحات اقلامهم وسمو تفكيرهم وآرائهم فى مقالات يكتبونها للصحافة بين الحين والحين.

اما عادل الغضبان الذى جرى قلمه فى الصحافة بانياً موجهاً فكان يعمل فى صمت وتواضع كأحد الجند المجهولين ممن تكتسب المعارك بجهودهم ويحظى القادة بأوسمة النصر جزاء ورمزاً، لقد بقى يجهد فى هذا الميدان ويكابد البلاء والعناء مرتقباً ان يتاح له فى يوم قابل ان يقود الكتيبة، لكن حب الادب كان اكبر من صبره وأقوى من كل اغراء فغلب عليه وجعله يمسك بالصحافة وقلبه متعلق بسحر البيان وابداع الفن. ولم يلبث ان تحول عنها وما يدور

فى فلكها من تزاحم وتهاتر وما يتقاسمها من تيارات حزبية وظروف طارئة او طوابع لا تتغير ولا تزايلها المحاكاة والمجاملة، على ان اى باحث لا يستطيع ان يمسك بالاسباب النفسية الخفية التى قد يجهلها صاحبها، فلا نعلم نقطة الانطلاق فى عادل الغضبان من الصحافة وتكاليفها الى مجال الادب الذى تبحبح فيه وبنى نفسه، ولو سألوه ذاته لفكر طويلاً، وربما لم يهتد الى العلة الاولى.

لقد انفلت على حين غرة من زحمة السياسة والطبقية وضجة الحزبية التى طغت فى مصر يومذاك على الصحافة الى عالم يسوده الفكر الحر والثقافة الرفيعة ويعين على تصوير الحوادث النفسية والحياة العقلية التى تعبر عن مدى التطور الذى خضعنا له ولم نجد بدأ من مسايرته لنلحق بركب الذين تقدمونا علماً وفناً.

وكانت مصر فى هذه الآونة من تلاقى الشرق بالغرب قد تغير تفكيرها وشعورها وتفتحت بعد عهد المنفلوطي على تجديد العقاد والمازني وأدب طه حسين والحكيم، فشهد الغضبان معركة القديم والحديث واحتكاك الآراء البالية بالمتطرفة، وبقي متتبعاً لتطور الفكر والثقافة بين عهدين وجيلين، حتى رأى مولد الادب الحديث، ومضى فى رعيله مع المجيدين والمجددين حافظاً للقديم حرمته وقيمته، متبرماً بسخف الحديث الذى انكرته اللغة وتجافى عنه الفن والاستعداد، وكأن الزمن الذى عاش فيه عادل الغضبان بين الحربين العالميتين كان موسماً لنضج تفكيره واشراق تعبيره واتساع ثقافته

وخبرته. ومن حظه فى الادب ان الطريق قد مهدت امامه فلم تضع جهوده السابقة ولا راحت مع الريح آثاره التى اودعها هواجسه وتأملاته ولونها باحساسه وخياله، وكانت متنوعة الاشكال والصور، فمن بواكير ادبه كانت مسرحية « احمس الاول » وهى تمثيلية فرعونية استوحاها من تاريخ مصر القديم واستحق باجادتها جائزة وزارة الشؤون الاجتماعية قبل الثورة. ولا غرو اذا جود الغضبان الكتابة فى الحوادث الفرعونية التى هى بمصر منبع الحضارة والفن، ومن يقرأ المسرحية او يشهد تمثيلها يدرك فهم الغضبان لروح التاريخ المصرى كما يفهمه ابناء النيل. وهذا الوعى العميق الذى ينبت من الارض طلع ورسخ فى سجايا الغضبان واخلاصه للفن حتى مزج نفسه بمصر والمصريين وصار واحداً منهم. ومن يستمع للهجته المصرية ويتتبع حياته الفكرية والاجتماعية يعده مثلاً فى الوفاء والولاء للوطن الاكبر الذى تفتح له صدره وتلقاه بالود فتأثر آفاقه وانسابت فيها آثاره وطوف خياله واندمج فى حياة اهله وهموم تحررهم من كل ما يعوق وعيهم ونهضتهم. ولئن تمصر الغضبان واعتز بمصريته اعتزازه بعروبته، فانه فى رسالته الأمينة الرصينة من اوائل الدعاةللامة الواحدة والمثابرين على الدعرة وان عددت السياسة ومطامع الاستعمار البلاد والاسماء وجددت القيود والحدود.

وشعر الغضبان، منذ قال الشعر، متسم بطابع الوطنية والاحداث القومية والاجتماعية، فما من خطب ألمّ بمصر او دهم بلداً من البلاد العربية الاكان شعر الغضبان صدى لذلك الخطب وصورة

لحوادثه والاضطراب من اجله. وله فى السوانح التى قامت بمصر للانشاء والتجديد والاصلاح قصائد فى حفولها وندواتها تصور الوثبة فى الامة المتحفزة والغبطة فى حريتها وخطاها.

اما الجانب الوجدانى فى شعر الغضبان، فهو متمثل فى صوره العاطفية التى تناولت الغزل العف والوصف الدقيق والمطارحات الاخوية، وغيرها مما جودت قريحته الخصبة وبشاشته للحياة، وطريقة الشاعر فى تعبيره تصل شعرنا الحديث بسوابقه الاصلية المتينة التى حفظت تراث الفصحى وروعة الفن والاداء، وسحبت حتى عصر شوقي سلسلة الكلام المنظوم فى أدب العرب.

ولو تفرغ الاستاذ عادل للدراسة الادبية فى منهاجها العلمى الحديث لتعددت مؤلفاته فيها، فقد اعطى مثالاً يحتذى فى كتابه « نجيب الحداد » جاء مستوفياً للوسائل الجامعة، معنياً بالاسباب والآثار التى صنعت « الحداد » وكونت عبقريته ووجهت مزاياه. وفى الفن القصصي كان للغضبان « ليلى العفيفة » التى دلت على طبعه واتقانه ومشاركته فى هذا الفن الرفيع، كما ترجم عن الفرنسية روائع فى الرواية والسيرة منها سجين زندا والزنبقة السوداء ودون كيشوت وغيرها.

وادباء العرب فى كل ارض يذكرون باللهفة والحنين. مجلات جليلة القدر بعيدة الاثر ظهرت فى مصر بعد « المقتطف »و «الهلال» وتلقاها الناس على ظمأ وشوق وتوقير، فكانت « الرسالة »

و « الثقافة » مدرستين جوالتين لاقلام الشيوخ المؤسسين والشباب الموهوبين، ثم برزت لعالم الادب مجلة « الكاتب المصرى » ثم «الكتاب» التى انشأتها دار المعارف بمصر منذ اثنى عشر عاماً، وعهدت بالاشراف على تحريرها، للاستاذ عادل الغضبان. وقد كانت « الكتاب » مع المجلات السابقة سفارات فكرية وروحية فى مصر والبلاد العربية تعارفت على صفحاتها اقلام وأعلام، وتلاقت مواهب وفنون وجال فيها ميزان النقد والتقويم، وقد اعطت للقراء نماذج من ادب الشرق والغرب. على ان « الكتاب » بقيت تؤدى رسالتها بعد احتجاب رفيقاتها حتى وقفت، فكان لوقوفها ضجة كبرى فى العالم العربى دلت على محنة الادب فى غياب هذه المجلات التى كانت مرايا وصوراً لحياتنا الفكرية والفنية، ومدارس خرجت المواهب والاقلام فى النقد والادب، وأدت للعروبة والتاريخ الحديث فضلاً لا ينسى. وحين خلت الساحة بمصر من المجلات الجدية التى تعنى بحياة الفكر وتطور الادب، ظهرت الصحف الخفيفة التى تسلى القارئ وتستهوى المراهق الحالم بموضوعات طريفة ظريفة سمها اكثر من دسمها، لكن الرجاء والعزاء فى هذه الكتب والمنشورات التى لم ينقطع تأليفها وتثقيفها لتدل على اشعاع مصر فى الفكر والفن والتحرير وحرصها على مكانتها العلمية فى العالم العربى.

ولما احتجبت « الكتاب » ثقلت اعباء الاستاذ عادل الغضبان، فقد اصبح يشرف على المحصول الفكرى والثقافى الذى تتعهده بالعناية والاتقان اكبر دار للنشر فى مصر والبلاد العربية هى دار

المعارف التى اسسها بمصر منذ سبعين عاماً الاستاذ نجيب مترى، وانه لاحد بناة النشر والطباعة فى وادى النيل .

وبعده فهذه خطرات متخطفة من سيرة اديب عربى كبير يرعى الادب المعاصر ويعمل على اظهاره لمصر والبلاد العربية بجد وحكمة واخلاص، غير طامع بنفوذ او ثواب إلا رضى الضمير والرسالة التى نذر عمره لتأديتها للعروبة والوطن، وكم تراه الحقيقة والمعرفة جديراً بالتمجيد والتأييد، حين ننظر الى من يرزقون باسم الجهاد، ويحظون بأرفع المراتب وهم اصفار من الكفايات العلمية والخلقية. ولكم تحسن مجامع اللغة والادب فى مصر والبلاد العربية حين تقدر للغضبان قدره فتضمه الى اعضائها عاملاً او مراسلاً، وتفيد من نقاء لغته وسعة ثقافته ومواهبه. اما شمائله ومزاياه، فخلاف لقبه الغضوب، فما تلقاه إلا رضى النفس وادع الطلعة طلق الملامح، لم يزايله الشباب وهوى الطبيعة والجمال فيها، وهو معها تلقاء الضفاف الوارفة وما يترامى عليه النظر من افواف النخيل وراء النيل.

ولو سألت الناس عن إساءة للغضبان لما برز منهم من يقاضيه او يمسك بتلابيبه، وكم فى عالم الادب والادباء من اقلام تنفث الكيد والشر، ونفوس كدرة لا يصفيها وجدان ولا برهان. اما قلم الغضبان فعادل عف كاسمه، وأما نفسه فأصفى من الماء، وما كان غضبه إلا لتأييد الحق، واشاعة الصدق، وحماية المثل العليا الانسانية.

* * *